الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمانُ بالقدر أعلى مراتب الإيمان، بلى هو ركنٌ هام من أركان الدين، يُبنى عليه صحَّةُ العقيدة أو فسادُها، ونجاة الإنسان أو هلاكُه، لأنه القطبُ الذي تدور حوله رحى الإيمان.!

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

(جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمونه في القَدَر ـ أي يجادلون الرسول في أمر القدر منكرين له ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ • إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ • وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٨ ـ ٥٠].

وفي الصحيح في قصة (جبريل) عليه السلام، حين أتى رسول الله ﷺ في هيئة أعرابي، يسأله عن أمور الدين، سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فقال له ﷺ: الإسلام أن تشهد (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وتقيمَ الصلاةَ، وتؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً، **قال**: صدقتَ! قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدِّقه!!

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه!! قال: صدقتَ.!

قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك...)[(١)] إلى آخر الحديث[(٢)].

قال أهلُ الحديث: هذا الحديث أصلٌ من أصول العقيدة، عليه يقوم بناءُ

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/ ١٣٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، وانظر جامع الأصول ١/ ٢١٦.

الإسلام، وبناءُ الإيمان الذي إذا اختلّ ركن من أركانه، تصدَّع أمرُ العقيدة والإيمان، وقد تأكدت هذه الأركانُ الستة بقول الله عزّ وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] وبقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

الأدلة على القضاء والقدر

كلُّ ما يجري في الكون، معلومٌ عند الله عزّ وجلّ، ومسجَّلٌ عنده في اللوح المحفوظ، قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ، والأدلَّةُ على ذلك كثيرة.

الأول: **قال اللّهُ تعالى في كتابه العزيز:** ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المراد بالكتاب المبين: (اللوح المحفوظ) الذي سجَّل الله فيه كلَّ الوقائع والأحداث، فما من ورقةٍ من الشجر تسقط، إلَّا يَعْلَمُ اللّهُ وقت سقوطها، والمكانَ الذي سقطت فيه، ولا حبَّةٍ تدخل في بطن الأرض، إلَّا يعلم مكانها، وهل تنبتُ أم لا؟ وكم تُخرج النواةُ من ثمرات، ومن يأكلها؟ ولا من شيء رطب أو جافّ، إلَّا وهو معلومٌ عند الله، مسجَّلٌ في اللوح المحفوظ، فكيف تغيب عليه أعمالُ العباد، وقد أحاط عُلمه بكل ذرةٍ في الكون؟

الثاني: **وقال سبحانه:** ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

المراد بالقلم ههنا: القلمُ الذي أجراه اللّهُ بالقَدَر، حين كتَبَ مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة[1].

رُوي عن عُبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللّهُ القلمَ، فقال: اكتبْ، قال: يا ربِّ وما

(١) الحديث أخرجه البيهقي والبزار.

أكتُب؟ قال: اكتب القَدَر، وما هو كائنٌ إلى الأبد)[١] رواه الترمذي.

الثالث: عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(إنَّ أولَ شيء خَلَقه اللَّهُ القلمَ، فأمره فكتب كلَّ شيء)[٢].

الرابع: عن عبد اللَّه بن عَمْرو بن العاص رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(إن اللَّهَ كتب مقادير الخلقِ، قبل أن يخلق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنة) رواه مسلم[٣].

الخامس: وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللَّهِ من المؤمنِ الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، إحرصْ على ما ينفعك، واستعنْ باللَّهِ ولا تَعْجِزْ، فإنْ أصابَكَ شيءٌ فقل: (قَدَّرَ اللَّهُ وما شاءَ فَعَل) ولا تقل: لو أنِّي فعلتُ كذا، لكان كذا، فإنَّ «لَوْ» تفتح عملَ الشيطان)[٤].

فقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ القَدَرَ سابقٌ للأحداث، وأن كلَّ ما يحصل في الكون بقضاءٍ من اللَّه تعالى وتقدير، والحذَرُ لا يُنجي من القَدَرِ، كما قال المصطفى ﷺ: (كلُّ شيءٍ بقَدَر حتى العجزُ والكَيْسُ)[٥].

السادس: **وعن جابر رضي اللَّه عنه أنه قال**: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: (لا يؤمنُ عبدٌ حتى يؤمنَ بالقَدَر، خيرِهِ وشرِّه من اللَّه تعالى، وحتى يعلمَ أن ما أصابَهُ لم يكن لِيُخطِئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصِيبَه)[٦].

أي حتى يوقن بأنَّ ما حدث له من مصيبة أو بلاء، لا بدَّ إلَّا وأن يدركه ذلك، مهما اجتهد للتخلص منها، وما صُرف عنه من بلاء فلن يصيبه، مهما قَصَد البعضُ إلحاقه به، لأن بذلك جرى القَدَرُ.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذيُّ رقم (٣٣١٩).

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي في سننه.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٣٧ والحديث أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤).

(٥) رواه الترمذي والنسائي.

(٦) تفسير روح المعاني للألوسي ١٧/ ١٠٩.

obeikandl.com

السابع: **وعن عُبَادةَ بين الصَّامت رضي اللَّه عنه أنه قال لابنه عند الموت:** (يا بُنيَّ إنك لن تجدَ طعم حقيقة الإيمان، حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئكَ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إن أول ما خَلَقَ اللَّه القلمَ، فقال له: اكتب! قال: يا ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة!! يا بُنيَّ إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس منيّ)[1].

قصة الديلمي مع أُبيّ بن كعب

الثامن: وعن ابن الدَّيلميّ رحمه اللَّه تعالى أنه قال: (أتيتُ «أُبيَّ بنَ كعب» فقلت له: قد وقع في نفسي شيءٌ من القَدَر، فحدِّثني، لعلَّ اللَّهَ أن يذهبَه من قلبي!!

فقال له أبيُّ بن كعب: لو أنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أهلَ سماواته وأهلَ أرضِهِ، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم.!

ولو رَحِمَهم لكانت رحمتُه خيراً لهم من أعْمالِهم.!

ولو أنفقتَ مثلَ أُحُد ذهباً في سبيل اللَّه، ما قَبِلهُ اللَّهُ منك، حتى تؤمن بالقَدَر... ولو متَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النَّار!!

قال: ثم أتيتُ (ابن مسعود) فقال مثلَ ذلك، ثم أتيتُ (زيد بنَ ثابت) فحدثني عن النبي ﷺ مثلَ ذلك)[2] رواه أبو داود.

قصة عبد الواحد مع عطاء

التاسع: **وروى الترمذيُّ عن عبدِ الواحدِ بن سُلَيم أنه قال:**

(قدمتُ مكةَ، فلقيتُ (عطاءَ بنَ أبي رَبَاح) فقلت له: يا أبا محمد، إنَّ بالبصرة قوماً يقولون: لا قَدَر! ـ أي ليس هناك قَدَر سابقٌ قدَّره اللَّه على العباد ـ

فقال لي يا بُنيّ: أتقرأ القرآن؟ قلتُ: نعم! فقال لي: اقرأ سورة

(١) الحديث أخرجه البخاري كتاب التفسير.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم (٤٦٩٩) وانظر جامع الأصول ١٠/ ١٠٥.

الزخرف، فقرأتُ: ﴿حمٓ • وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ • إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ • وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

ثم قال لي: أتدري ما أمُّ الكتاب؟ قلت: لا، **قال**: فإنه كتابٌ كتبه اللَّهُ قبل أن يخلق السمواتِ والأرض، فيه أن فرعونَ من أهل النار، وفيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ولقد أوصى عُبادَةُ بنُ الصَّامت ابنه فقال له: يا بُنَيَّ اتَّقِ اللَّهَ، واعلمْ أنك لن تتقيَ اللَّهَ، حتى تؤمنَ باللَّه، وتؤمنَ بالقدر كله، خيره وشرّه، وإنْ متَّ على غير هذا دخلتَ النارَ! إني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: إن أول ما خلق اللَّهُ القَلَمَ، فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد)[1] رواه الترمذي.

أهمية الإيمان بالقضاء والقدر

من هذه النصوص القطعية من الكتاب والسنة، ندرك أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه أحد أركان الإيمان الستة، لا يصحُّ إيمانٌ، ولا يُقبل عند اللَّه عملٌ إلَّا به، ومن أنكره فقد اختلَّ إيمانُه وفَسَد، فصار كمن أنكر وجود اللَّه ووحدانيته، وكيف يصحُّ إيمانُ من يزعم، أنَّ اللَّه تعالى لا يعلم الأشياءَ إلَّا بعد حدوثها؟ أفلا يكون هذا انتقاصاً لعلم اللَّه الشامل، الذي أحاط بكل شيء علماً؟ وهو سبحانه القائل: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ • أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

وقد جفَّ القلمُ على علم اللَّه تعالى، فلا يقع أمرٌ، ولا يحصل شيءٌ، إلَّا ما عِلمه اللَّهُ وسطَّره في اللوح المحفوظ، وهو المشارُ إليه بالقضاء والقَدَر.!

قال الإمام الخطَّابي رحمه اللَّه: قد يحسب كثيرٌ من الناس، أن معنى (القضاء والقَدَر) من اللَّه تعالى، فيه معنى الإجبار والقهر للعبد، على ما قضاه اللَّه تعالى وقدَّره، وليس الأمر كما يظنُّون، وإنما معناه الإخبارُ عن تقدُّم علمِ اللَّهِ، بما يكون من أفعال العبادِ وكسبهم، وصدورِها عن علمِ

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم (٢١٥٦) وأبو داود رقم (٤٧٠٠).

منه وتقديرٍ، وإذا كان الأمر كذلك ـ أي ليس فيه إجبارٌ ولا إكراه ـ فقد بقي عليهم من بعد علم اللَّه فيهم، أفعالُهم واكتسابُهم، ومباشرتُهم تلك الأمور، عن قصدٍ وتعمُّد، وعمل إرادةٍ واختيار، وبها تقوم الحجة عليهم، وتلحقهم اللائمةُ عليها[1].

❁❁❁

(١) انظر كلام الخطابي في جامع الأصول لابن الأثير ١٠/١٠٦.

obeikandl.com

إنكارُ القَدَر عقيدةُ المجوس

إنكارُ القضاء والقَدَر (عقيدةُ المجوس) وهو أمر خطير، ينبني عليه اتهامُ اللَّهِ عزَّ وجل، بعدم معرفة ما يجري في الكون، إلَّا بعد حدوثه، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

أي لا يَغيبُ ولا يخفى على اللَّه، وزنُ ذرةٍ في الكائنات والوجود، **ولا أصغر من الذرَّة ولا أكبر منها**، إلَّا وهو معلوم عند اللَّه، ومسجَّل في اللوح المحفوظ، فكيف تخفى عليه أعمال العباد؟ وكيف تغيب عنه الأحداث في العالَم؟ ولهذا عدَّ رسول اللَّه ﷺ المنكرين للقدر مجوساً، وأخرجهم من ربقة الإيمان، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه (لكلِّ أمةٍ مجوسٌ، ومجوسُ أمتي الذين يقولون لا قَدَر، إن مَرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)[1].

قصة عطاء مع ابن عباس

● **ورُوي عن عطاء بنِ أبي رباح أنه قال:**

(أتيتُ ابنَ عبَّاس وهو يَنْزِعُ من زمزم ـ أي يستقي بالدَّلو من ماء زمزم ـ فقلتُ له: لقد تُكلِّم في القَدَرِ ـ أي أنكر بعضُ النَّاس القَدَر ـ فقال: أوَقد فعلوها؟ قلتُ: نعم، قال: فواللَّهِ الذي لا إلَهَ إلا هو، ما نزلت هذه الآيةُ إلَّا فيهم ـ أي في المنكرين للقدر ـ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ • إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩].

ثم قال: **أولئك شرار هذه الأمة**، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلُّوا على موتاهم، لو رأيتُ أحداً منهم، لفقأتُ عينيه بأُصْبُعيَّ هاتين).

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم (٤٦٩٢) وانظر جامع الأصول ١٠/ ١٢٩ وجامع البيان تفسير الطبري ١٢/ ١١٧.

قصة الوليد مع أبيه عُبادة بن الصَّامت

● **وروى الإمام أحمد عن الوليد بنِ عُبادةَ بين الصامت أنه قال:**

(دخلتُ على عُبادةَ ـ أي على أبي ـ وهو مريضٌ أتخايل فيه الموت ـ أي أتوقَّع موته من ملامح وجهه ـ فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهدْ لي فيما ينفعني!! فقال: أجلسوني، فلمَّا أجلسوه قال لي: (يا بُنَيَّ، إنك لن تَطْعم الإيمان ـ أي لن تذوق طعم الإيمان ـ ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم باللّه عزَّ وجلَّ، حتى تؤمنَ بالقَدَر خير وشرّه!!)

قلت يا أبتاه: وكيف لي أن أعلمَ ما خيرُ القَدَرِ وشرّه؟

قال: أَنْ تعلمَ أنَّ ما أخطأكَ لم يكن ليُصيبَك، وما أصابك لم يكن، ليُخْطِئَك!!

يا بُنيَّ إني سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: إنَّ أوَّلَ ما خلق اللّهُ القَلَم، ثم قال له: اكتبْ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، يا بُنيَّ: إن متَّ ولستَ على ذلك ـ أي على الإيمان بالقضاء والقدر ـ دخلتَ النَّارَ)[1].

ويؤيّد هذا الذي قاله عُبادة بن الصامت، ما أوصى به رسولُ اللّه ﷺ ابنَ عباس وهو غلام يافع فقال له: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه عليك، رُفعت الأقلامُ وجفَّت الصحف)[2] رواه الترمذي.

قال الحافظ ابن كثير ٣/ ٤١٠ بعد أن أورد هذه الروايات العديدة: (ولهذا يستدلُّ بهذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] أئمةُ أهلِ السُنة على إثباتِ قَدَرِ اللّهِ السابقِ لخلقه، وهو علْمُه تعالى الأشياءَ قبل كونها، وكتابتُه لها قبل بَرْئها ـ أي قبل إيجادها ـ وردُّوا بهذه الآية وبما شَاكَلَها على الفرقةِ القَدَريَّة، الذين ظهروا في أواخر عصر الصحابة.

❁❁❁

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) الحديث رواه الترمذي وهو حديث مشهور.

حكمةُ القضاء والقدر

من هنا يظهر لنا بجلاء، أن كلَّ ما يجري في الكون من أحداث، وحروب، وفواجع، وفيضانات، وزلازل، وما يحصل من البشر من أعمال، خيراً كانت أو شرًّا، وما يقع من أمراض، وأوصاب، وأحداث مؤلمة، كلُّها يعلمها اللَّهُ قبل حدوثها، كما قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

أي ما تحدث من مصيبة في الأرض، ولا في البشر من (قحط، وزلزال، ومرض، وكرب، وبلاء) إلَّا وهي مكتوبة مثبتةٌ في علم اللَّه تعالى، من قبل أن نخلق الخلق، وننشئ البريَّة، وهي مسجلة في اللوح المحفوظ، وإثبات ذلك ـ على كثرته ـ سهلٌ يسير على اللَّه عزَّ وجلَّ.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من الإيمان بالقدر فقال عزَّ شأنه:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

أي أعلمناكم بذلك، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تَبْطَروا بزهرة الحياة الفانية، ولتعلموا أن كل ما يحدث لكم من غنى وفقر، وصحة ومرض، إنما هو بعلم اللَّه، وتقديره وتدبيره، واللَّه تعالى لا يحبُّ كل متكبِّر، يفخر على الناس بما رزقه اللَّهُ، من مالٍ وجاه، وعزٍّ وسلطان.!

والمراد بالحزن والفرح في الآية: الحزنُ الذي يوجب القنوطَ واليأسَ، والفرحُ الذي يورثُ الكِبْرَ والبَطَر.

قال ابنُ عباس: (ليس من أحدٍ إلَّا هو يحزنُ ويفرحُ، ولكنَّ المؤمنَ يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمتَه شكراً)[1].

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٥٢٩.

يريد أن المؤمن إذا عرف أن كلَّ ما يحدث عليه، من مصائبَ ونكبات، إنما هو بقضاءِ اللَّه، استسلم لحكم اللَّه، فاستراح قلبُه واطمأنَّ، وصبر على المصيبة، فشعر بالراحة والرضى.

ولهذا قال المصطفى ﷺ: (عجباً لأمرِ المؤمنِ!! إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ!! وليس ذلكَ لأحدٍ إلَّا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ ـ أي نعمةٌ تسرُّه ـ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ ـ أي مصيبة تضرُّه ـ صَبَرَ فكان خيراً له)[1].

إنَّ المؤمنَ الصادقَ، يعلم أن ما أصابه من بلاء، إنما كان بقضاءٍ سابق، فيصبر لقضاء اللَّه، ويرضى بما قدَّره اللَّه عليه، فيسعد ويهنأ، أمَّا الكافر الذي لا يؤمن بقضاء اللَّه، فإن المصيبة تعظم عليه، ولا يجد التخلُّص منها، إلَّا بقتل نفسِه بالانتحار، فيزيد كربُه، ويتضاعف عذابه، وكم سمعنا من أناسٍ انتحروا لخسارةٍ فادحة أصابتهم؟ فالإيمانُ عصمةٌ من البلاء، والكفر سببٌ للشقاء.

في المصيبة ثلاثُ نِعَم

قال عمر رضي الله عنه: ما أصابتني مصيبة إلَّا وجدتُ فيها ثلاثَ نِعَم:

الأولى: أنها لم تكن في ديني.

الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة: أن اللَّه تعالى وعد عليها بالأجر والثواب العظيم.

وتلا قول اللَّه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

❁❁❁

(١) الحديث رواه الترمذي وأحمد في المسند.

تعريف القضاء والقدر

حتى ندرك سرَّ معرفة (القضاء والقدر) الذي هو من أهمِّ أركان الإيمان، لا بدَّ لنا أن نفهم معنى القضاء، ومعنى القَدَر، على الوجه الشرعي الصحيح، حتى لا يذهب الوهمُ ببعض ضعفاء الإيمان، أو بعض الجهلة، فيقولوا: كيف يقدِّر اللَّهُ العليمُ الحكيمُ الكفرَ والضلالَ، وفعلَ المنكر والمعصية على الإنسان، ثم يعاقبه عليها؟ أليس هذا يتعارض مع العدل الإلٰهي؟ يحكم عليه بالشقاء، ثم يأخذه بالعقوبة، على حدِّ قول القائل:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

والجواب: أنَّ هذا جهلٌ بمعنى (القضاء والقدر)، ولو اتَّضحَ للإنسانِ معناه الشرعيُّ على الوجه الصحيح، لذهب ذاك الوهمُ، وانتفت الشبهةُ، ونحن بمشيئة اللَّه تعالى، سنوضِّح الأمر، لنزيحَ عن وجه الحقِّ، ما لَحِقَ به من ظلمةِ الجهل والباطل، فنقول ومن اللَّه نستمد العون:

ما معنى القضاء والقَدَر؟

معنى القضاء: القضاء هو: علمُ اللَّهِ الأزليُّ بما كان، وبما سيكون، وبما هو كائن، حتى يرث اللَّهُ الأرضَ ومن عليها وإليه يُرجعون!

معنى القدر: أمَّا القَدَرُ: فهو وقوعُ الأمور، والأحداث، والنوازل، على حسب العلم الإلهي السابق، الذي سُجِّل في اللوح المحفوظ!!

وتوضيحاً لهذا التعريف نقول: إن اللَّه تعالى قبل أن يخلقنا، يعلم المؤمنَ من الكافرَ، والبَرَّ من الفاجر، والمطيع من العاصي، ويعرف كلَّ ما جرى في الكون، وما سيجري فيه، قبل أن يخلقنا، وقبل أن يخلق السموات والأرض، وقبل أن تقع كلُّ تلك الأحداث المفجعة التي تحيق بالبشر، كما دلَّتْ عليه النصوصُ الكريمة، مثلُ قوله تعالى موضِّحاً علمَهُ الشَّامل الكامل:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ • عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ • سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠].

هل عرفنا سعةَ علم اللَّه تعالى؟ وهل أدركنا ما تعنيه من حقائق غيبيَّة، لا يصل إليها خيال الإنسان؟

اللَّهُ وحده المختصُّ بعلم الغيب

إنه تعالى يبيّن لنا أنه وحده، الذي اختصّ بعلم الغيب، فهو الذي يعلم ما تحمله كلُّ أنثى في بطنها، هل هو ذكرٌ أم أنثى؟ تامٌّ أم ناقص؟ حسن أم قبيح؟ يعلم كلَّ شجرة، وكلَّ ثمرة، وكلَّ قطرة تنزل من السماء، ويعلم ما تسقطه أرحامُ الأمهات، فيلد ميتاً، وما يلد على التمام والكمال.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كلُّ شيء عنده بتقدير وتدبير، لا يتخطّاه، لأنه الذي أحاط بكل شيء علماً، فهو مرتبطٌ بالقَدَر الإلٰهي المحكم، الذي لا تشذُّ عنه أدنى ذرة.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي هو سبحانه العالمُ بما غاب عن الأنظار، وبما يشهده الخلائق مما يجري في الليل والنهار، كلُّ ذلك في علمه تعالى، وهو العظيم الكبير، المتعالي على عباده بعظمته وجلاله، وهذا بيانٌ لكمالِ علمه سبحانه، وكمالِ قدرته وسلطانه.

وقولُه سبحانه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

فيه زيادةُ توضيح وبيان، لعلمه التامّ الكامل، أي يستوي في علمه تعالى، ما أضمرتْه القلوبُ من خفايا وأسرار، وما نطقت به الألسنةُ، يعلمُ من همَسَ بالكلام سرًّا، أو نطق به جهراً، ويستوي في علمه من هو مستترٌ في ظلام الليل يعمل القبائح، ومن يأتي بها في وَضَح النهار، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد!! هذا العلمُ الواسعُ الذي أثبته اللَّهُ في اللوح المحفوظ هو (القضاءُ والقدر) لا يختلف مع علمه المحيط بمقدار ذرة.

توضيح ابن كثير لمعنى القضاء والقدر

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وهذه الآيةُ الكريمة، يستدلُّ بها أئمةُ أهل السُّنَّة، على إثبات قَدَر اللَّه السابقِ لخلقه، وهو علْمه الأشياءَ قبل كونها، وكتابتُها لها قبل بَرْئها، وهي من أدلِّ دليل على القَدَريَّة، نُفاةِ علمِ اللَّهِ السَّابق، قبَّحهم اللَّه تعالى[1].

الإنسانُ مُؤاخذٌ بكسبه وعمله

ارتباطُ القَدَرِ بعلم اللَّه تعالى، أمرٌ ثابت مقطوع به، فلا يحدث شيءٌ في الكون إلَّا بعلمه، ولا يَنفُذُ قضاءٌ إلَّا بتدبيره، واللَّهُ سبحانه وتعالى، لا يؤاخذُ البشرَ، ولا يعاقبهم استناداً إلى علمه، إنما يجري حسابُهم وعقابُهم، على عَمَلهم وكسبِهم، فللَّهِ تقديرٌ سابق، مرتبطٌ بالعلم، وللعبادِ كسبٌ واختيار، مرتبطٌ بالعمل.

يقول اللَّه تعالى يوم القيامة لأهل الجنة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ويقول أيضاً: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ويقول لأهل النار: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

ويقول للكُفَّار الفُجَّار: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]. أي هل تُجزون إلَّا بما كسبته أيديكم، من الآثام والإجرام؟

واقرأ قولَ ربِّ العزة والجلال ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أيّ أيُّ منفعةٍ للَّهِ عزَّ وجلَّ في تعذيبكم، إن شكرتم ربكم وآمنتم به؟ هل يتشفَّى من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يجلب به النفع؟ أم يدفع به الضُرَّ؟ واللَّه شاكر لطاعة العباد، عليم بجميع أحوال البشر.

❁❁❁

---

(١) رواه ابن جرير الطبري كما في ابن كثير ٣/ ٥٢٩.

obeikandi.com

تصورٌ خاطئ قبيح لمعنى القدر

من الخطأ الفاحش والجهل القبيح، أن يتصوّر مخلوق أنه لولا (القضاءُ والقدر) لكان بمقدور الإنسان أن يصبح مؤمناً صالحاً، مستقيماً على أمر الله، سالكاً طريقَ الخير والسعادة، وأن يعيشَ في هذه الحياة، كما يعيشُ المؤمنون الأبرار، على الطاعة والاستقامة، وحبِّ الخير، ولكنَّ القَدَر سَبَق بكتابته في ديوان الأشقياء.

ويقولون: السعيدُ سعيدٌ، والشقيُّ شقيٌّ من الأزل، وليس بالإمكان، تبديلُ ما قدّره الله عليه وقَضَاه!!

والجوابُ عن ذلك: أن هذا التصوُّرَ من وحي الشيطان، الوسواسِ الخنّاس، وهو كذبٌ وافتراء على الله، فاللّهُ تبارك وتعالى، أجلُّ وأحكمُ، وأعدل، من أن يحكم على إنسانٍ بعملِ الشر، وفعل القبيح، ثم يعاقبه عليه، وهو القائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

هذا جهلٌ بالحقيقة، وعدوانٌ على العدالة الإلٰهية، فالربُّ جلّ جلالُه، بيّن للعباد الطريق، ومنحَ الإنسانَ القدرةَ على فعل ما يختارُه، من كفرٍ وإيمان، أو طاعة وعصيان، مع كمال الاختيار، لفعل ما يشاء، بعد أن رَزَقه العقلَ، وأرسل له الرسل، مبشّرين ومنذرين، وأرشده إلى الطريق القويم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

احتجاج الكفار بالقضاء والقدر باطلٌ

احتجَّ المشركون على كفرهم وإجرامهم، بالقضاء والقدر، وزعموا أنَّ ما هم عليه من الكفر والإشراك، واقعٌ بمشيئة اللّهِ، وكذلك ما هم عليه من المعاصي والآثام، كلُّها بقضاءٍ من الله وقَدَرٍ، فهم على زعمهم معذورون عند الله سبحانه وتعالى.!

هكذا زيَّن لهم الشيطانُ أن يكفروا ويفسقوا، ثم يتعلَّلوا بالقضاء والقَدَر، لدفع المسؤولية عنهم، وقد حكى عنهم القرآن هذا الباطل والبهتان، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

يقولون: لو شاء اللَّه ما أشركنا، ولا حرَّمنا شيئاً أحلَّه اللَّه، لا نحن ولا آباؤنا الذين سبقونا!!

وغرضُهم أن يتعلَّلوا بالقضاء والقدر، لدفع المسؤولية عنهم، وهذه نزعةٌ جبريَّةٌ شيطانية، يحتجُّ بها السفهاء والفُجَّارُ، عندما تَقْرَعُهم بالحجَّةِ، كما يقول المجرمُ والعاصي، والمرتكبُ لأنواع القبائح والمنكرات: هذا قَدَرُ اللَّهِ، قدَّره اللَّهُ عليَّ، لا مهربَ، ولا مفرَّ منه.!

وقد ردَّ اللَّه هذا الباطلَ والبهتان بقوله سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي كما افترى هؤلاء المشركون الكذب على اللَّه، كذلك افترى من سَبَقهم من الفُجَّار الكذبَ، كذَّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم، حتى ذاقوا بأسنا الشديد، بإهلاكهم وتدميرهم، فلم يُفلت منهم أحد.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي هل عندكم حجة أو برهان، على صدق مزاعمكم فتظهروه لنا؟ ما تتَّبعون في هذه الدعوى، إلَّا الظنون والأوهام، وما أنتم إلَّا كَفَرةٌ فَجَرة، تكذبون على اللَّه، وتفترون عليه.!

الردُّ على المزاعم الباطلة

ردَّ تعالى على مزاعمهم الباطلة من وجهين:

الأول: أن هذه المقالة الباطلة، مقالةُ من سبقهم من الفجرة المكذِّبين لرسل اللَّه.

الثاني: أنهم كَذَبوا على اللَّه، وخَلَطُوا صدقاً بكذب.

نعم، إن أفعال البشر، واقعةٌ بقضاءٍ وقَدَر، هذا حقٌّ لا يخالف فيه مؤمن، ولكنْ من أينَ لهم معرفةٌ وعلمٌ، بأنَّ اللَّهَ قدَّر عليهم هذه المعاصي والقبائح؟

obeikandl.com

هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ، فرأوا بأمِّ أعينهم، أن اللَّهَ كتب عليهم الشقاءَ والضَّلالَ، فسارعوا إلى تنفيذ قضاء اللَّه، ليكونوا مطيعين لربهم؟

ومن الذي أخبرهم أن اللَّه تعالى إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم، يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ وهو سبحانه القائل: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...﴾ الآية [الزمر: ٧].

قضاءُ اللَّه تابع لعلمه

إنَّ قضاءَ اللَّه تابع لعلمه، وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضى، كما إذا عَلِمَ السلطانُ خروجَ بعضِ الجيشِ والجنودِ عليه، وقيامَهم بثورةٍ ضدَّ حكمه، فهل هذا العلمُ يكون عذراً لهم، يُعفيهم من المسؤوليةِ والعقوبة، بالخروج على السلطان، ومخالفة القانون والنظام؟

هذا مَثَلٌ ـ وللَّهِ المَثَلُ الأعلى ـ فاللَّه تعالى يعلمُ كفرَ الكافر، وعصيانَ العاصي، وقد سُجِّلَ هذا العلمُ في اللوح المحفوظ، وعلمُهُ سبحانه ليس فيه حجةٌ أبداً للإنسان، لأن اللَّه تعالى يحبُّ الطاعةَ، ويُبْغِضُ العصيان، ولهذا ختم الآياتِ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

أي قل لهم: لقد قامت حجةُ اللَّه البيِّنةُ الواضحةُ على العباد، في أمر التكليف، فلم يبق لأحدٍ عذرٌ ولا حجة، أرسلَ الرُسلَ، وأنزل الكتب لهدايةِ البشر، وأعطى كلَّ إنسانٍ حرّيةَ الإرادة والاختيار، ليسلك الطريق الذي يحبه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ليتمَّ التكليفُ، ولو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولا إكراهَ لأحدٍ على طاعة أو عصيان.

❁❁❁

obeikandl.com

زبدةُ القول في القضاء والقدر

كلمة بديعة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

وزبدةُ القول: أنَّ الاحتجاج بالقضاء والقدر، حجة باطلة باتفاق كلّ ذي عقلٍ ودين، والكفارُ يعلمون بفطرتهم وعقولهم، أن هذه الحجة باطلة من الأصل، فإنَّ أحدهُم لو ظَلَمه شخصٌ، أو أراد سلبَ مالِهِ، أو قَتْلَ ولده، أو الزنى بزوجته، فقاومه وقاتَلَه، فاعترضَ عليه المعتدي، وقال له: لو شاء اللَّهُ ما فعلتُ ذلك!! لم يقبل أحد منه هذا القول، بل ضحكوا منه وسخروا!! وهو نفسُه لا يقبل هذا الكلام من غيره، فكيف يحتجُّ الإنسان بالقضاء والقدر؟ فهي حجة باطلة من الأساس، وإنما يحتجُّ بها المحتجُّ، دفعاً للَّوم عن نفسه، ليرفع عنه المسؤولية، وهي قولةٌ باطلة، لا تستند إلى منطق سليم. اهـ.

قصة فُكاهيَّة لسارقٍ يحتج بالقدر

يُحكى أنَّ أحد القضاة، جيء له بشخصٍ شرب الخمر، وسطا على أهل دارٍ، ليسرق متاعَهم، وأمسكه الشرطةُ وهو متلبّسٌ بالجريمة، ولمَّا أراد القاضي معاقبته، وإقامة الحدّ عليه، بكى وأخذ يتشفَّع للقاضي ليعفوَ عنه، ويقول له: واللَّه يا حضرةَ القاضي، هذا الشيء لم أفعله بإرادتي، وإنما هو أمرٌ كَتَبه اللَّهُ عليَّ وقدَّره، وهذه أولُ جنايةٍ ارتكبتُها في حياتي!!

أمَر القاضي بجلده للسُكر ثمانين جلدةً، وباعتبار أنه قُبض عليه، قبل أن يسرقَ شيئاً من المنزل، ترك إقامةَ حدّ السرقة عليه، ثم أخذ القاضي يعتذر إليه، ويقول له: لا تؤاخذني يا حبيبي، فأنا لم أفعل بك شيئاً، وما حَدَث منيّ، هو أمرٌ قدَّره اللَّهُ عليَّ وقضاه، فأنا غيرُ مسؤولٍ عمَّا وقع عليك، وإن شاء اللَّه تنال الأجر على ما نالك لطاعتك للَّهِ، حيث أردت تنفيذ قضاء اللَّه وقدره!! وكانت صفعةً له أمام الحاضرين أَخْرَسَتْ لسانَه!

الإنسانُ بين دائرتي: التَّسْيير والتَّخْيير

ينبغي أن نعلم أن الإنسان في هذا الكون، واقعٌ بين دائرتين اثنتين:

الأولى: دائرةٌ لا دخلَ له فيها، ولا مشيئةَ ولا إرادة، ولا اختيار، يسير ضمنها بِسُنَنٍ كونيّةٍ، وضَعَها الخالقُ جلَّ وعلا، تسمى (دائرة التَّسيير) أي أن الإنسان فيها مسيَّرٌ لا مخيَّر.

الثانية: دائرةٌ له فيها كسبٌ واختيار، يعمل فيها بمحض إرادته واختياره، دون إكراهٍ ولا إجبار، هذه الدائرة تسمى (دائرة التخيير) وهي التي تقع فيها (المسؤوليةُ) ويُبْنى عليها (الثوابُ والعقاب) فالإنسانُ فيها مخيَّر، يفعل الشيء فيها باختياره، وما يحدث على الإنسان من مصائب، وأسقام، وأوجاع، وأمراض، وما يُبْتلَى به من ضياع المال، وفقدِ الولد، وموت الحبيب، وأمثالِ ذلك، كلُّها داخلة في الدائرة الأولى (دائرة التسيير) أي إن الإنسان فيها مسيَّرٌ غير مخيَّر، وهو في هذه الدائرة غير مسؤول.

أمثلة على ذلك

اللّهُ تعالى خَلَقك بهذا اللون، وبهذه الصورة، خلقك طويلاً أو قصيراً، أبيضَ أو أسود، لن يسألك يوم القيامة لماذا أنت قصير لا طويل؟ ولماذا كنتَ رجلاً؟ ولماذا أنت أسود لا أبيض؟ هذه أمور اختصَّ اللّه تعالى بعلمه وحكمته بها، وليست من عملك، فلست مسؤولاً عنها، لأنها من اختصاص الخالق جلَّ وعلا: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ • أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

بيَّن تعالى في هذه الآية، أنه هو المتصرّف في الكون، والمالك له، يخلق ما يشاء من الخلق، حسب حكمته وتدبيره، فيخصُّ من يشاء بالإناث، ويخصُّ من يشاء بالذكور، أو يجعلهم من النوعيين (ذكوراً وإناثاً) فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً، لا ذرية له ولا نسل، فهل يُسأل يوم القيامة: لماذا لم تُنجبْ ذريّة!؟

كذلك حياةُ الإنسان وموتُه، متى يلدُ؟ ومتى يموت؟ ماذا سيحدث عليه من أحداث، تصيبه في نفسه، أو ولده، أو ماله، هذه كلُّها يكون فيها الإنسانُ

obeikandi.com

مسيَّراً غير مخيَّرٍ، لأنها ليست بإرادته، ولا بكسبه أو اختياره.

أمَّا الدائرة التي يكون فيها مسؤولاً مسؤوليةً كاملة، فهي الدائرة التي يكون له فيها عمل، ويكون له فيها كسبٌ واختيار.

هذا ما قرَّره القرآنُ في تشريعه الحكيم العادل، فَنَسَب للإنسان الإرادة لفعل الخير أو الشرّ، وللطاعةِ أو المعصية، ولنيلِ رضوانِ اللَّه أو سخطه، حين قال سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا • وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

هكذا بكل وضوح نَسَب إلى الإنسان الإرادة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾: وربَطَ تعالى الثوابَ والعقاب بالإرادة، فمن شاء أن يعمل للجنَّة، فالطريقُ أمامَه ميسَّرٌ، ومن أحبَّ أن يكون حطباً لجهنم، فالطريقُ أمامه أيضاً ميسَّرٌ، وقد ترك اللَّهُ للإنسان حريَّة الإرادة والاختيار.

رفعُ المسؤولية عند الإكراه

وفي بعض الحالات يفعلُ الإنسانُ الشيء دون إرادةٍ منه ولا اختيار، وذلك في حالة (الإكراه)، فإذا أُجبِر الإنسانُ وأُكره، على فعل شيءٍ محرَّم، كشرب الخمر، أو الردة عن الإسلام ـ والعياذُ باللَّه ـ أو فعلِ عملٍ قبيح، حتى ولو كان كبيرةً من الكبائر، فإنَّ اللَّه تعالى يغفره له، ولا يعاقبه عليه، لأنه كان بدون إرادةٍ منه، وبدون اختيار، فعند الإكراه يرتفع الإثم عنه، لماذا؟ لأنه لا اختيار له ولا إرادة في هذا الأمر، واللَّه أكرمُ وأعدلُ من أن يعاقب إنساناً أُجبر على فعلٍ قبيح محرَّم، لم يكن له فيه إرادة، دلَّ على ذلك قولُه تعالى، عن الزانية التي قارفَتْ فاحشة الزنى مكرَهةً على ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

أي ومن يكرههنَّ على الزنى، فإن اللَّه سيغفر لهنَّ، وينتقم ممن أكرههنَّ شرَّ انتقام.

أرأيتم كيف رفع اللّه عن الزانية المكرهة (حدَّ الزنى)؟ وجعل العقاب على من أكرهها على فعل الفاحشة؟ لأنها لم تفعله بإرادتها بل بالإكراه والإجبار.

سبب نزول الآية الكريمة

روى الإمام مسلم عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال: (كان عبد اللّه بن سَلُول ـ رأسُ المنافقين ـ يقول لجاريته: اذهبي فابغينا مالاً، ويجبرها على الزنى، فأنزل اللّه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾.

أي على الزنى) رواه مسلم[1].

الإكراه يرفع المسؤولية والإثم

حتى الكفرُ باللّه، الذي هو أعظمُ الذنوب والجرائم، إذا أُجبر عليه الإنسانُ، ارتفع عنه الإثمُ، لعدم الإرادة، بل أباح اللّه تعالى للإنسان أن ينطق بكلمة الكفر، ليدفع عن نفسه العذاب، الذي لا صَبر للإنسان عليه، أو يدفع عنه القتلَ، قال اللّه تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

نزلت هذه الآية الكريمة في (عمّار بن ياسر) رضي اللّه عنه، أخذه المشركون فعذَّبوه عذاباً شديداً، وأخذوا أباه (ياسراً) وأمّه (سُمَيَّة) فعذَّبوهم ليرتدوا عن الإسلام، قُتل الأبُ تحت وطأة العذاب، واستشهدت الأمُّ بطعنةٍ من حَرْبة، ضربها بها (أبو جهل) اللعينُ في قُبُلها ـ أي فرجها ـ فقُتلت، وهما أول شهيدين في الإسلام.

أمّا (عمّار) فكان ضعيفَ الجسم، لم يُطقِ العذابَ، فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، وهو سبُّ الرسولِ ﷺ، وذِكْرُ أصنامهم وآلهتهم بخير، ثم أتى رسولَ اللّه ﷺ وهو يبكي.

فقال له الرسول ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان،

---

(١) انظر صحيح مسلم.

فقال له ﷺ: إن عادوا فعُدْ ـ أي إن عادوا إلى تعذيبك، فعُدْ لهم بما أكرهوك عليه، وفيه نزلت هذه الآية الكريمة.

لم يشرطِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على المكْرَه على الكفر، إلَّا شرطاً واحداً، هو أن يكون قلبُه مطمئناً بالإيمان، أي أن يكون قلبُه مملوءاً إيماناً ويقيناً، فيكون كفرُهُ قاصراً على اللسان، دون القلب، أمَّا من طابت نفسه بالكفر، وانشرح له صدرُه، فله عذاب جهنم الخالد، وقد ارتدَّ عن الإسلام فعلاً، قَلْباً، وقالَباً.

ورُوي أن (عماراً) لمَّا أعطاهم ما أرادوا مكْرَهاً، قال بعضُ المسلمين: لقد كفر عمَّار، فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: إنَّ عمَّاراً مُلِئَ إيماناً من فَرْقه إلى قَدَمه، واختلَط الإيمانُ بلحمهِ ودمه، ونهاهم أن يقولوا عنه ذلك[1]، وفيه نزلت الآية الكريمة.

الإنسان غير مؤاخذ حالة الاضطرار

مثال آخر: حرَّم اللَّهُ على المسلم أكلَ الميتة، ولحمَ الخنزير، وما ذُبح لغير اللَّه تعالى، واستثنى حالةَ الإكراه والاضطرار، ورفع عنه الإثم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

فكيف يُجْبِرُ اللَّهُ مخلوقاً على المعصية، ثم يعاقبه عليها؟ هذا مستحيل، بل هو كذبٌ وافتراء على اللَّه، ولهذا قال في الآية بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فالاحتجاج بالقضاء والقدر على المعصية، باطلٌ شرعاً وعقلاً، لا يقول به أحدٌ عن قناعةٍ وإيمان، إنما يقوله ليدفع المسؤولية عن نفسه بالباطل، ونحن نقول لهذا المكابِر المعانِد:

لماذا يحتجُّ الإنسان بالقدر في اقتراف الجريمة، وفعلِ الشرّ، ولا يحتجُّ بالقَدَر في عمل الطاعة وفعلِ الخير؟

إذا شرب إنسانٌ الخمرَ، أو سَرَق، أو زنى، أو قتلَ النفس، يقول: اللَّهُ قَدَّر ذلك عليَّ، ولا يقول: اللَّهُ قدَّر عليَّ أن أبني المسجد، أو أُنفق على

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

الفقراء، أو أُعينَ هذا الضعيفَ المسكين فأبني له بيتاً!! بل ينسب الخيرَ إلى نفسه، فيقول: أنا الذي بنيتُ المسجدَ، وأنا الذي أنفقتُ على الفقراء والمساكين، وأنا أولُ من أسهم في بناء مستشفى خيري، وأنا بنيتُ مدرسةً لأبناء الشهداء، وهكذا ينسب الشرَّ إلى اللّه تعالى، وينسب الخير لنفسه!! هل اللّهُ عزَّ وجلَّ، قدَّر الشرَّ عليك فقط، ولم يقدِّر عليك فعْلَ الخير؟

إنَّ الخير والشرَّ، كلُّ ذلك حاصلٌ بقضاءٍ وقَدَر، كما قال جبريل لرسول اللّه ﷺ: (وأن تؤمن بالقَدَر خيره وشرّه من اللّه تعالى)[1] !!

قَدَرُ اللّه وقضاؤه مرتبط بالعلم

نعم إنَّ القَدَرَ مرتبطٌ بعلم اللّه تعالى، فاللّهُ عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق الكون، وقبل أن يخلق البشر، علمَ ما سيفعله كل إنسانٍ، من خير أو شر، فسجَّل ذلك العلم عنده في كتاب، وجرى به قَلَمُ القَدَر، فلا يقع شيء في الكون إلّا بعلمه، واللّهُ سبحانه وتعالى، لن يحاسبَ أحداً على علمه، إنما يحاسبُ النّاسَ على أعمالهم.

ومن رحمته سبحانه بالخلق، أن أرسل لهم الرسُلَ، وأنزل عليهم الكتب السماوية، وألزم على نفسه ـ تفضلاً منه وكرماً ـ بيانَ طريق الخير والسعادة لجميع الخلق، وتَرَكَ للإنسان حريةَ الاختيار ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

أي بيَّنا له وعرَّفناه طريقَ الهدى والضلال، ثم خيَّرناه وتركنا له طريق الإرادة والاختيار، فإمَّا أن يسلكَ طريقَ الخير والإيمان، فيكون شاكراً، وإمَّا أن يسلك طريقَ الفجور والطغيان فيكون فاجراً، والأمرُ مفوَّضٌ للإنسان باختيار أيِّ سبيلٍ شاء!!

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وكان هذا السائل (جبريلُ) عليه السلام، جاء إلى رسول اللّه ﷺ في هيئة أعرابي من أعراب البادية، يقول عمر في روايته: (كان شديدَ بياض الثياب، شديدَ سواد الشعر، لا يعرفه أحدٌ منّا، ولمّا انتهى من سؤال الرسول ﷺ، انطلق فقال النبي ﷺ لأصحابه: ردُّوه عليَّ، فخرجوا فلم يجدوا أحداً، فقال لهم ﷺ: أتدرون من السائل؟ قالوا: اللّهُ ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم، وقد جاء فيه (وأن تؤمن بالقَدَر خيره وشرّه من اللّه تعالى) والحديث مشهور.

إرسال الرسل للبشر لقطع الحجة

وإنما أرسلَ اللَّهُ الرسل الكرام لهداية الناس، لئلا يبقى لأحدٍ حجةٌ على اللَّه تعالى يوم القيامة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهذا هو الذي وضَّحه القرآنُ، في بيان الحكمةِ من إرسال المرسلين، حيث قال تقدَّستْ أسماؤه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ولو أنَّ اللَّه تعالى أدخل أهلَ النَّارِ النَّار، وأهلَ الجنَّةِ الجنَّة، على حسب علمه الأزلي، بالسعداء والأشقياء، وبمن يؤمن به ومن يكفر، ولم يرسل لهم رسلاً، لإرشادهم إلى طريق الإيمان، لكان لهم عذرٌ عند اللَّه تعالى في عدم الإيمان، إذ كيف يعرفون اللَّهَ ويعبدونه، ويعرفون صفاتِهِ الجليلة؟ وكيف يميِّزون بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضلال، ولم يأتهم من يرشدهم إلى الدين الحقِّ؟

هذا ما وضَّحه القرآن الكريم في بيانه الحكيم، حيث قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] أي لو أنَّا أهلكنا هؤلاء الكفار، من قبل إنزال القرآن، وبعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، لقالوا يا ربَّنا: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً، حتى نؤمن به ونتَّبعه؟ من قبل أن نذلَّ بنزول العذاب، ونفتضح على رؤوس الأشهاد!؟

أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجة لأحدٍ من الخلق على اللَّه، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، فلم يترك لأحدٍ حُجَّةً ولا عذراً.!

❁❁❁

ما هي فائدة الإيمان بالقدر؟

لقد بيَّن لنا الكتابُ العزيزُ، فائدةَ الإيمان (بالقضاء والقَدر) الذي هو أحدُ أركان الإيمان، وبيَّن لنا الحكمة منه، فإنَّ المؤمنَ إذا عَرَف أنَّ كلَّ ما يحدث عليه، من مصائبَ، وكوارثَ، ونكباتٍ، إنما هو بقضاءٍ من اللَّهِ وقَدَر، وأنَّ جميع الأمور مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ، استسلم لحكم اللَّه، فاستراح قلبُه واطمأنَّ، وشعَرَ بالراحة النفسيَّة، والرضى بما حدث له، فتخفُّ المصيبةُ عليه، ويستسلمُ لقضاءِ اللَّه، ويلهجُ لسانُه بالشكر والصبر، فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيكون هذا الإيمانُ سلوى لنفسه، وراحةً لقلبه، وهذا ما أرشد إليه القرآن للكريم، في قول الحقِّ جلَّ وعلا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

أي ما تحدث من مصيبة في الكون ولا في البشر (من قحطٍ، وزلزالٍ، ومرضٍ، وكربٍ، وبلاء) إلَّا وهي مكتوبةٌ مثبتةٌ في علم اللَّه تعالى، من قبل أن نخلق الخلق، ونُنشئ البريَّة، وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ، وإثباتُ ذلك سهلٌ يسير على اللَّه تعالى، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تبطروا بزهرة الحياة الفانية، واللَّه تعالى لا يحبُّ كل متكبِّر، يفخر على الناس بما أعطاه اللَّه ومنحه من مالٍ وجاه.

والمرادُ بالحزنِ والفرح في الآية الكريمة: الحزنُ الذي يوجب القنوطَ واليأسَ، والفرحُ الذي يورث الأشَرَ والبطر.

قال ابن عباس: (ليس من أحدٍ إلَّا وهو يحزنُ ويفرحُ، ولكنَّ المؤمنَ يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمتَه شكراً)[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٥٨.

ولهذا قال المصطفى ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابته ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاءُ، شكر فكان خيراً له)[١] رواه مسلم.

قال بعض الصالحين: (من عَرَفَ سرَّ اللَّهِ في القَدَر، هانتْ عليه المصائبُ).

وللَّهِ درُّ (الفاروق عمرَ بنِ الخطَّاب) رضي اللَّه عنه الذي نوَّر اللَّهُ بصيرته، فكان يقول: (ما أصابتني مصيبة، إلَّا وجدتُ فيها ثلاث نِعَم:

الأولى: أنها لم تكن في ديني، لأن المصيبة في الدين أعظمُ المصائب.

الثانية: أنها لم تكن أعظمَ ممَّا كانت، إذْ ما من مصيبة إلَّا وهناك عند اللَّهِ، ما هو أعظم منها!!

الثالثة: أن اللَّه تعالى وَعَد الصابرَ على المصيبة بالأجر العظيم، والرحمة والمغفرة والرضوان، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وفي الحديث القدسي: (إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه ـ أي عينيه ـ فصَبَر، عوَّضتُه الجنَّة)[٢].

هذا ثواب من صَبَر على فقد بصره، فكيف بمن عظُمت عليه المصائب؟ واللَّهُ تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فجزاء الصابرين لا يُحصى ولا يُحصر، يُعْطون ثوابهم بغير عَدَدٍ ولا ميزان.

هذه هي حكمة الإيمان بالقضاء والقدر: الراحةُ للقلبِ، والاطمئنانُ بوعدِ اللَّه، والاستسلامُ لحكمه وقضائه، وبذلك تهون على المؤمن المصائبُ، بخلاف من لا يؤمنُ باللَّه، ولا يعتقد بالقدر، فإنه عند اشتداد المصائب، وتفاقم الكروب والبلايا، وفَقْده للاحتساب والصبر، قد يقدم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزهد رقم (٢٩٩٩).

(٢) رواه البخاري في المرضى ١٠/ ١٠٠ باب فضلِ من ذهبَ بصرُه، والترمذي رقم (٢٤٠٢).

obeikandl.com

على الانتحار، فيخسر دنياه وآخرته ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

اللّهم ارزقنا الشكر على نعمائك، والصبرَ على بلائك، والرضى بحكمك وقضائك، ولا تحرمنا فضلك وإنعامك، يا أللّهُ يا أكرَم الأكرمين.

obeikandl.com

عودة إلى موضوع القَدَر

نرجع إلى موضوع القضاء والقدر فنقول: إن جميع الأمور والأحداث معلومة للّهِ عزَّ وجلَّ، من أصغرِ ذرَّة، إلى أكبرِ مجرَّة، فلا يخفى على اللّه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، يعلم ما تكسب كلُّ نفس، ولا يغيب عن علمه شيء، ولو كان أصغرَ من الذَّرَّة ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠].

السرُّ والعلنُ عنده سواء، يعلم ما أضمرته القلوبُ، وما لَهَجتْ به الألسنةُ، ومن همَس بالكلام سرًّا، أو نطقَ به جهراً، ويستوي في علمه سبحانه، من هو مستترٌ في ظلام الليل، يعمل القبائح، ومن يأتي بها في وَضَح النهار، فكيف تغيب عنه أعمال البشر؟ وهو الرقيب الحسيب، الذي لا تخفى عليه خافية!!

قضاؤه تعالى مرتبط بالعلم

قضاؤه تعالى مرتبطٌ بعلمه، فمن قبلِ أن يخلق اللّهُ الخلقَ، علِمَ ما سيعملون، وسجَّل علمه هذا في كتابٍ عنده، هو (اللوحُ المحفوظ) الذي سُطِّرت فيه جميعُ الأقوال، والأفعال، والأحداث، التي تحدث في الكون، أو تقع من البشر ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي عِلْمُ أحوالِ الخلائق، عند علّام الغيوب، لا يعلمها إلّا ربُّ العزة والجلال، لا تخفى عليه سبحانه ولا ينساها، واللّهُ سبحانه لا يحاسبنا يوم القيامة على علمه، إنما يحاسبنا على أعمالنا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومن هنا ندرك مفهوم (القضاء والقدر) على الوجه الشرعي الصحيح،

وهو ما حكاه علماء الشريعة الغراء، وأيّدته نصوص القرآن العظيم.

تعريف القضاء

تعريف القضاء: القضاءُ: علمُ اللّهِ الأزليُّ القديمُ بما كان، وما سيكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، إلى أن يستقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النَّار في النار!!

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ • وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[الروم: ١٥، ١٦].

﴿مُحْضَرُونَ﴾ أي مساقون إلى نار الجحيم، ليحضروها ويُحرقوا فيها، ولا يكون الإحضارُ إلّا للمجرم، أي كالمجرم الذي يُساق إلى السجن لينال العقاب.

تعريف القدر

تعريف القدر: أمّا القَدَرُ فهو: حدوثُ الوقائع، والأمورِ، والأحداثِ، في الأزمنةِ، والأمكنةِ، والأشخاص، كما عَلِمها اللّهُ تعالى، من غير تبديلٍ ولا تغيير، وكما سُجِّلت في اللوح المحفوظ.

فاللّهُ تعالى يعلم أنَّ (أبا جهلٍ) لعنه اللّهُ، لن يؤمنَ، وسيعيش كافراً، ويموت كافراً، وسيبقى طيلة الحياة، معادياً لدين الإسلام، فقضى اللّهُ عليه بالكفر، مع أن عدوَّ اللّه من قرارة نفسه، كان يعتقد بصدقِ محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنه لطغيانه وفجوره، أبى أن يقول: (لا إله إلّا اللّه) وأن يشهدَ لمحمدﷺ بالرسالة.!

نقول: **هل علمُ اللّهِ بكفر أبي جهل، وبقاؤه على الكفر، حتى يموت كافراً، هل يكون له عذراً يوم القيامة**، ينجيه من عذاب اللّه تعالى؟ لا، لن ينجيه من عذاب اللّه، لأنه كَفَر باختياره، ثم أصرَّ على الكفر، دون إكراهٍ ولا إجبار، فهو مسؤول عن فجوره وطغيانه.

❁❁❁

obeikandl.com

أبو جهل يشهد بصدق الرسول ﷺ

ولْنَستمعْ إلى سبب إصراره على الكفر، من هذه القصة العجيبة، فقد رُوي أنَّ رجلاً من أبناءِ مكة، لقيَ (أبا جهل) في أَحَد طُرُقاتِ مكة، فاستوقفَه، وقال له: يا أبا الحَكَم ـ كنية أبا جهل ـ ليس هنا غيري وغيرُك: أنشدُكَ باللَّه، هل محمد صادقٌ في دعوى النبوة، أم هو كاذب؟

فقال له أبو جهلٍ: واللَّهِ إنَّ محمداً لصادقٌ، وما كَذَبَ قطُّ!!

فقال له الرجل: إذاً فلماذا تعادونه وتحاربونه؟

فقال له أبو جهل: ويحك يا هذا!! لقد تقاسمنا الزَّعامَةَ نحنُ وبني هاشم؟ ـ يريد أنَّه من بني مخزوم، والرسولُ من بني هاشم ـ فأطعموا فأطْعَمنا، وسَقَوْا فسقينا، وأجارُوا فأجرنا ـ أي أدخلوا بعض الناس إلى جوارهم ففعلنا مثلَهم ـ حتى كنَّا كفرسَيْ رِهانٍ، لا نسبقهم ولا يسبقوننا في المفاخر والمآثر، ثم بُعثَ فيهم محمدٌ، فافتخروا علينا، فقالوا: بُعث فينا نبيٌّ!!

فمن أين نأتيهم نحنُ بنبيٍّ، حتى نساويهم في المفاخر؟ واللَّهِ لا نؤمن به ولا نصدّقه، ولا نقرُّ برسالته أبداً!![1]

فأنزل اللَّهُ فيه هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

أي قد علمنا تكذيبَهم لك يا محمد، وحزنَك الشديدَ على إصرارهم على الكفر والتكذيب لرسالتك، وتأثُّرَك بما يقولون! فإنهم في الحقيقة لا يكذِّبونك، لأنهم من قرارةِ نفوسهم يعتقدون صدقَك، ولكنَّهم لفجورهم وطغيانهم، يكذِّبون بآيات اللَّه، وينكرون رسالتك، عناداً وطغياناً، فاتركْ أمرهم إلى اللَّه، وسوف نريك ما نفعل بهم.!

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/ ١١٧ والتفسير الواضح الميسر ص٣٠٤.

ومثلُ هذا كفرُ (أبي لهب)، و(الوليدِ بنِ المغيرة) ـ والدِ خالد بن الوليد ـ و(أُبيِّ بنِ خَلَف)، و(العَاصِ بنِ وائل) ـ والدِ عَمْرو بن العاص فاتحِ مصر ـ وغيرهم من عُتاة الكفر والضلال، كان كفرهم عن عنادٍ وطغيان، لا عن شكٍّ وجهالة، فكيف تُرفع المسؤوليةُ عن هؤلاء الفراعنة المتغطرسين؟ وهل يُقبل منهم الاحتجاجُ بالقضاء والقدر؟ ليقولوا يوم القيامة: لقد علمتَ يا ربَّنا أننا سنكفُرُ بدينك، ولا نؤمنُ برسولك، فلماذا تعاقبُنا على ذلك؟

هل هذا ينجيهم من العذاب؟ وقد أخبرهم اللّه بأنه لا يرضى منهم البقاء على الكفر، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

ضربُ مثلٍ للقضاء والقَدَر

ولنضربْ للقضاءِ والقدر، بمثلٍ بسيط، يدركه العاقلُ والجاهلُ، والذكيُّ والغبيُّ، لأنه مَثلٌ واقعيٌّ من الحياة، وللّهِ المثلُ الأعلى وهو العليمُ الحكيم.!

أستاذٌ في مدرسةٍ ثانوية، يلقي الدروسَ على الطلاب، ويبذل قُصارى جهده لإفهامهم، يتوجَّه في محاضراته بالمعلومات إليهم جميعاً، دون تمييزٍ بين واحدٍ وآخر.

في الفصل طالبٌ مجدٌّ نشيط، ينتبه للمدرّس، ويُلقي بالاً لكلّ ما يسمعه من أستاذه، ويؤدّي واجباتِهِ المدرسيَّة على الوجه الأكمل.

وهناك طالبٌ آخر، خاملٌ كسولٌ، لا يلقي بالاً للدَّرس، ولا يؤدّي وظائفَه المدرسيَّةُ، ويشاغبُ أثناء سماع المحاضرة، بل يزيد في اللهو والعبث، فيؤذي رفاقه، مع كثرة ما حلّ به من العقاب من جهة الإدارة!!

يتوقَّعُ الأستاذُ ـ بعلمه المحدود ـ أن ينجح الطالبُ الأولُ، المجدُّ النشيطُ، وأن يرسبَ الآخرُ الكسولُ الخاملُ، وحَدَث ما توقَّعَه الأستاذُ في نهاية العام الدراسي، حيث نجح الطالبُ الأولُ بامتياز، ورسب الثاني بوجهٍ مخزٍ ومخجل، وجاء هذا الأبلهُ الأحمقُ، يحتجُّ عند الأستاذ ويقول له بكل وقاحة: يا أستاذُ أنتَ تعلم أنني سأرسب، فالذنبُ ليس عليَّ، أنتَ حكمتَ برسوبي فرسبتُ!!

هل يَقبل أحدٌ مثلَ هذا المنطق والاحتجاج؟ كذلك علمُ اللَّهِ تعالى، علمٌ أزليٌّ كاشفٌ لما سيعمله الإنسان، قبل أن يحصل منه ذلك، وعلمُه تعالى الذي سجَّله في اللوح المحفوظ، ليس حجةً للكافر، أو العاصي الفاجر، حتى يحتجَّ به ذاك الشقيُّ، لأن اللَّه تعالى قَطَعَ الأعذارَ، بإرسالِ الرُّسلِ، وإنزالِ الكتب، لهداية البَشَر، فلم يبق لأحدٍ حجة عند اللَّه، قال تعالى عن الكفار، وهم يُعذَّبون في نار الجحيم:

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

أي وهم في جهنم يصرخون ويستغيثون قائلين: يا ربنا أخرجنا من نار جهنم، وردَّنا إلى الدنيا، لنعمل بطاعتك، عملاً صالحاً يُرضيك، غير ما كنَّا نعمله من قبيح الأعمال!!

ويأتيهم الجواب سريعاً من قِبل الجبَّار: أولم نُمهلكم في الدنيا، ونعمِّركم فيها عُمُراً مديداً، يكفي لأن يتذكَّر فيه من يبغي النجاةَ والسعادةَ لنفسه؟ وجاءكم الرسولُ المنذرُ محمد ﷺ، فماذا صنعتم في هذه المدَّةِ الطويلة التي عشتموها؟ فذوقوا العذاب الشديد على كفركم وإجرامكم، فليس لكم اليوم شافعٌ يشفع، ولا ناصرٌ ينجيكم من عذاب جهنم المؤبَّد!!

❁❁❁

obeikandi.com

هل المحوُ والإثباتُ يجري في اللوح المحفوظ؟

وهنا يرد سؤالٌ لا بدَّ من الإجابة عليه، وهو: قد يظنُّ البعضُ أن (المحو والإثبات) يجري في اللوح المحفوظ، في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

والجوابُ عن ذلك: أنَّ ما سُجِّل في اللوح المحفوظ، هو علمُ اللَّه تعالى الأزليُّ، وهو لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، فلا يجري في اللوح المحفوظ شيءٌ من المحو والإثبات، إنما يكون في الشرائع والأحكام، وفي صحف الملائكة الكرام، فيبدِّل اللَّهُ ويغيِّر من الأحكام ما يشاء، حسب الحكمةِ والمصلحةِ، فينسخُ اللَّهُ ما يشاء نسخَه من الأحكام التشريعية، ويُبقي ما يشاءُ إثباتَه دون تغيير أو تبديل، كما يمحو سبحانه ما يشاء من صحف الملائكةِ الكرام، فيغني ويُفقر، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويدفعُ البلاء بالتضرُّع والدعاء، وعندَه جلَّ وعلا اللوحُ المحفوظ، الذي سُطِّر فيه علمُ اللَّهِ الأزليُّ، فهذا لا يتبدَّل ولا يتغيَّر.

وهذا معنى قولِ ابنِ عباس رضي اللَّه عنهما: (يُبدِّلُ اللَّهُ ما يشاء فينسخه، إلَّا الموتَ والحياةَ، والشقاءَ والسعادةَ، فإنه قد فُرِغ منها)[1].

قال العلَّامة ابن عطية في المحرر الوجيز: (والذي يتلخَّصُ من هذه الآية، أن الأشياءَ التي دبَّرها اللَّهُ في الأزل، وعَلِمها، لا يصحُّ فيها محوٌ ولا تبديل، بحالٍ من الأحوال، وهي التي كُتبت في (أمِّ الكتاب) وسَبَق بها القضاءُ!

وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وغيره من أهلِ العلم، وأمَّا الأشياءُ التي أخبر اللَّهُ تعالى أنه يُبدِّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آيةٍ بعد تلاوتها، ففيها يقعُ النسخُ بعد الإثبات، فيما يسجِّله له الحفظةُ ـ أي الملائكةُ ـ

(١) انظر مختصر ابن كثير ٢/ ٢٨٢ وصفوة التفاسير ٢/ ٢٨٢.

ونحو ذلك، وأمَّا إذا رُدَّ الأمرُ إلى القضاء والقَدَر، فلا محوَ ولا إثبات)[1].

والخلاصة: هناك كتابان: كتابُ الملائكة على الخلق، فهذا محلُّ المحو والإثبات، وكتاب اللوح المحفوظ، فهذا لا يتبدَّل ولا يتغير، وليس فيه محو ولا إثبات، لأن فيه علمَ اللَّه الأزلي، وهو لا يتغيَّر.

❁ ❁ ❁

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة ٨/ ١٨٢.

obeikandl.com